

٥- الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ثم انتقل الى وصف عواطفه فقال « إنه رجب الأناة ، ناصح السريّة ، لا يملكه الغضب ، ولا يضر لاحد من الناس العداوة والبغضاء . » وعقب هذا الوصف قال : « لست مع ذلك عاجزاً عن الانتقام لنفسي اذا اعتدى أحد على أو أساء الى شرفي . وفي هذه الحال أومن بأن الواجب يقوم في نفس مقام الحق ، ويأمرني بأن أتم انتقامي في صلابة وعزم »

وليس في هذا القول شذوذ أو غرابة ، ولكن ما يقوله عن

خيمة الروم الكلاب « فقالت عفراء بنت غفار الحميرية « صدقت والله يا بنت الأزور ، نحن والله في الشجاعة كما ذكرت ، وفي البراعة كما وصفت ، لنا المشاهد النظام ، والمواقف الجسام . ولقد اعتدنا ركوب الخيل ، وهجوم الليل . غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت ، ولقد دهمنا المدو على حين غرة ، وما نحن الا كالنم بدون سلاح » فقالت خولة « يا بنات التبابعة ، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأتبان ، نحمل بها على هؤلاء ، فلعل الله ينصرنا فنستريح من المرة » فقالت عفراء « والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا » ثم تناولن الأعمدة وتقدمتن خولة وهي تقول لمن لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالخلفة للدائرة ، وأوسن أرحل أفراس القوم ضرباً ، ولا تفرقن فيقع بكن التشيت ، ثم هجمت وهي تقول :

نحن بنات تبع وحبر وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب فار تسمر ان يوم تة . ن المذاب الأكبر
وما هي إلا جولات حتى خلصن الى المسلمين .

هذان موقفان من مواقف البطولة في هذه المرأة العربية المسلمة ولقد كان لها رضوان الله عليها مواطن آخر غر صالحات . جعل الله منها اسوة حسنة لمرأة اليوم ، هداها الله أقوم طريق .

م . أمير طلس

الشفقة يثير الدهشة والعجب : « إلى قليل الشعور بالشفقة ، وأستريح الى ذلك جد الراحة . ولكنني اذا رأيت انساناً جمعجت به المصائب ، بذلت غاية جهدي في مواساته . وأعتقد حقاً أن من الواجب على الانسان أن يسلك كل السبل التي تؤدي الى اظهار الشفقة على من تصيبه الارزاء والمحن ، لان البائسين أغبياء الى درجة تجعلهم يجدون في اظهار الشفقة عليهم والثناء لحلم راحة وعزاء . وأجد من الحزم إظهار هذه العاطفة دون الشعور بها صدقاً ، لأنها لا تصلح لشيء ، في دخيلة الانسان ولا عمل لها إلا إضمار القلب وتحطيمه ، ويجب النزول عنها للدعاء لأنهم لا يفعلون شيئاً بإحياء العقل فهم في حاجة الى عاطفة تحفزهم الى العمل »

وقوله هذا يعبر أبلغ تعبير عن روح القرن السابع عشر الذي عرف الناس فيه بصلابة القلب وضعف الحساسية . كانوا أثناء الحرب الأهلية يدمرون نهاراً ويقتلون ، ثم يرقصون ليلاً ويمجنون ، وكانوا يتحدثون عن التعذيب والقتل في بساطة الحديث عن اللعابة الفرحية ، والفكاهة الشبيهة .

ويجمل بنا في هذا المقام أن نذكر رأى ثلاثة من قادة الفكر في هذه العاطفة ، نرى الفرق الشاسع بينهم وبين لاروشفوكو . فمونتني^(١) يقول : « إلى شديد الميل الى الرحمة والوداعة » . وديكارت^(٢) يرى أن ميزة النفس الكبيرة « أن يكون شعورها

(١) ١٥٣٣ - ١٥٩٢ فيلسوف فرنسي وكاتب أخلاق خالد الذكر . تعلم اللاتينية طفلاً ، ولما بلغ السادسة من عمره كانت هذه اللغة هي الاداة التي يتخاطب بها الناس . وفي عام ١٥٥٦ أتم دراسة القانون واشتغل بالقضاء عام ١٥٧٠ . ثم اعتزل منصبه ووقف أوقات فراغه على البحث والدرس والياحة . ودين بشهرة الى كتاب واحد وضعه وصماه « تجارب » لأنه كما قال أراد يحرب ملكاته الطبيعية . وقد جمع في هذا الكتاب موضوعات في التاريخ والفلسفة والسياسة والأدب وصور فيه همه والانسانية وكون آراءه في الانسان من الاختلاط بأهل عصره وملاحظتهم ، ومن كتب القدامى كبلوكارخوس وسينكا . وهو يعتقد أن العقل طليز عن ادراك الحقائق الميتافيزيقية بدون وحى أو إلهام الاله . وكان يحرص على دين أبوه ، ولكن روح المسيحية لم ينفذ الى قلبه . وهو رافض في اعتماد بعض الناس ومتشكك في ملة البعش الآخر . وكان من الناحية الاخلاقية أبيقورياً ، ولكنه كان يؤمن ببعض فضائل مصدرها الرضاء بالقدر والصبر على الكارهة ، وقوة الارادة ، وأسلوبه سري فريح حتى تثير

(٢) ١٥٩٦ - ١٦٥٠ فيلسوف فرنسي عظيم ، صاحب مذهب خاص يقتضي التجرد من كل المعلومات السابقة والبناء من جديد على نور العقل ، أي اتخاذ الشك سبيلاً الى اليقين . وقد بدأ بالشك في الوجود ثم ثبت له أن آلة الشك هي الفكر ، فأمن بوجود الفكر والفكر

وقد حال خجله دون دخوله مجمع العلماء لأنه كان يعجز عن الكلام أمام جمع كبير من الناس ، وتقليدات المجمع تفرض عليه أن يرد على خطبة الاستقبال بخطبة أخرى وتناكبان يجيد الحديث إلا في الصالونات الأدبية التي يؤمها عدد قليل من الأصدقاء الأخصاء . وكان من عادته أن يتكلم قليلا ، وينفر من التثارين الذين يدسرون الخطابة في الحديث ، ويفرضون الصمت والاصغاء على غيرهم . ويعتقد أن « المصلحة الذاتية هي روح عزة النفس أو الآخرة » حتى في السمر والمناقشة ، فإذا لم يفكر كل إنسان إلا في نفسه وفي قوله ، شل الآخرين وبث في نفوسهم الضيق والفجر ، ويرى أن أمثل الطرق لانعاشهم وإقازهم من المل هو الاصغاء إليهم وإظهار الابتهاج بقولهم . ومن وصاياه الماثورة : « يجب الاصغاء الى المتكلم مهما كان حديثه وإحيى الرباط طائش الغرض عاريا من المعنى . ولا أوصي بتجنب معارضته ومقاطعته فحسب ، بل أوصي أيضا برياضة النفس على احتمال روحه وذوقه والاطمئنان إليهما والتشبع بهما ، وإطراء قوله بقدر ما يستحق ، ووضع هذا الاطراء في قالب أميل الى الحقيقة منه الى اللياقة والمجاملة » . وعرف بالتجربة والملاحظة أن لاشيء أبغض الى النفس وآلم للأذن من أن يجمل الانسان نفسه محورا للحديث في كل موطن ، فتجنب ذلك جهد المستطاع

وكان يكره من التكلم لهجة الثقة المستبدة والتعبير الذي يدل على البحث الطويل وأغاثات القريحة ، ويكلف بتوزيع القسط بين المعاني والبناني . ويميل الى الإيجاز المتع وفخر بذلك « من شأن العقول الكبيرة أن تدل بقولها الموجز على كثير من المعاني . ومن صفات العقول الهزيلة أن تتكلم كثيرا ولا تقول شيئا » . وقد أجاد الإيجاز في مواعظه الى درجة كادت تبلغ حد الكمال . ولنضرب مثلا هذه الموعظة : « يملك الانسان دائما ما يمكن من الجلد لاحتمال آلام الغير » ، فليس من المستطاع « تكثيف » التهم في كلمات أقل من هذه . وهذا الإيجاز يجمل « للمواعظ » قيمة تاريخية هامة ، لأنها تعين طوراً جديداً للنثر الفرنسي . وقد قدرها فولتير حق قدرها فقال : « يرجع أكثر الفضل في تكوين ذوق الأمة وجعلها تتعشق الاصاله والدقة الى مواعظ لاروشفوكو »

(البقية على صفحة ٩٥٩)

بآلامها أضعف بكثير من شعورها بآلام غيرها » . ويتطلب لارويير^(١) من النفس العالية « أن تكون قوة الشكيمة فلا تلين صعدتها إلا أمام عاطفة واحدة هي الشفقة »

وإذا يدعو الى العجب أن لاروشفوكو الذي ينكر هذه العاطفة في مقاله ومواعظه ، يقرها في مذكراته ورسائله . فقد كتب عن ثورة الفلاحين في (بواتو) التي سبق ذكرها في تاريخ حياته يقول : « لا أنكر أن يؤمهم جعلني أنظر بعين الشفقة الى تودهم » . ثم طلب من الوزير ما زاران في ذلك الوقت أن يمنحه حق العفو . ولما أجيب الى ما طلب أحسن استعمال هذا الحق ، فلم يندش شرفاً ولم يسفح دمًا . وقبل موته بقليل أي في عام ١٦٧٤ كتب الى الأنسة دي سكودري يقول : « بودي لو تنفق سوق الرحمة وتصبح بدعة يولع الناس بها ، فلا يقع بصرنا بعد ذلك على بائسين » . وكثيراً ما رأته مدام دي سفتيه « متلبساً بالحنان » ، فأدركت أنه يظهر من عواطفه وقلبه غير ما يظن . ويطلب على ظننا أن هذا الرجل لم يميز طبيعة نفسه من الأثر الذي أنشأته فيها البيئة والبلاط . فقد اشترك في اللسائس ورأى الأسراء والمظالم يتكالبون على متاع الحياة ، ويجدون في البحث عن مصلحتهم الذاتية في جنح وخسة ، فكرهم واحترقهم وقسا في الحكم عليهم ، مع أنه بطمه كريم رحيم . وأثر البيئة هو الذي جعله يخلص الود لعدد قليل من الناس اختارهم قلبه ، وهذا شأن المتشاكين أمثاله ، يضعون كل افتقارهم الى الحب في بعض أفراد أعزاء عليهم . وهذا الافتقار الى الحب هو جوهر تفورهم من الناس

وكان لاروشفوكو الى جانب الصفات التي سبقت ، طموحاً ولو أنه ينكر ذلك . لم يستحوذ عليه طموح ريشليو ، أو على الأقل عجز عن بلوغ شأو هذا السياسي العظيم ، فتمنع بالسي وراء الحصول على لقب لزوجه ، والسماح له بدخول قصر اللوفر في عبرية . فلما أحقر في سعيه ، اقتصر طموحه على كتابة « المواعظ »

(١) ١٦٤٥ — ١٦٩٦ أحد حكماء فرنسا وفلاسفتها الأخلاقيين . كان معلماً لحفيد الأمير دي كوندية . وفي عام ١٦٨٨ نشر كتابه المخال « خصال » مع ترجمة كتاب ثيوفرست الفيلسوف اليوناني المشهور وعنوانه « خصال » أيضاً ومن يقرأ كتابه يلمح فيه أثر لاروشفوكو ويكامل . وقد حمل فيه على مظالم عصره في أسلوب لاذع أخاذ ، وعلى التفاوت الأليم في الميمنة بين الأغنياء والفقراء . وفي عام ١٦٩٣ أصبح عضواً في مجمع العلماء